أثر الاعراف الاجتماعية في النظام الاجتماعي في عصر الدولة الرستمية

م.م نادية محمد كريم
جامعة القادسية، كلية التربية ، قسم التاريخ

الملخص:
يتناول هذا البحث أثر الأعراف الاجتماعية في النظام الاجتماعي خلال عصر الدولة الرستمية، وهي إحدى الدول الإسلامية التي برزت نتيجة جهود الخوارج الإباضية في المغرب الأوسط. شهدت هذه الدولة، التي امتدت لأكثر من قرن وربع، تحولات جذرية أثرت على مختلف جوانب الحياة السياسية، الاقتصادية، والاجتماعية في المنطقة، ويبدأ البحث بتحديد الإطار الجغرافي للمغرب الإسلامي، موضحًا حدوده وأقسامه، ومناقشًا سكانه الأصليين، البربر، واعتناقهم الإسلام. كما يقدم تعريفًا شاملاً للعادات والتقاليد ضمن مفهوم الأعراف الاجتماعية، ومن ثم ينتقل إلى استعراض تاريخ الدولة الرستمية، منذ نشأتها على يد عبد الرحمن بن رستم، مرورًا بتأسيس عاصمتها تاهرت، وأبرز حكامها، وصولاً إلى دورها السياسي في تشكيل أحداث المغرب الإسلامي، كما يعالج البحث أيضًا العلاقة بين الجانب السياسي والاجتماعي، مستعرضًا مراحل ازدهار المجتمع التاهرتي من خلال تركيبته السكانية وطبقاته، بما في ذلك مكانة المرأة، ودور الموارد المالية في دعم هذا الازدهار. كما يناقش التحديات التي أدت إلى تراجع الدولة وتأثير ذلك على النظام الاجتماعي، ويقدم البحث فهماً أعمق للأوضاع الاجتماعية في المغرب الإسلامي خلال فترة الرستميين، ويسلط الضوء على دور الأعراف الاجتماعية في تشكيل النظام الاجتماعي والسياسي لهذه الدولة.
الكلمات المفتاحية: الاعراف الاجتماعية- النظام الاجتماعي- الدولة الرستمية- المرأة- الموارد المالية

The impact of social norms on the social system in the Rustamid era

Nadia Muhammad Karim
Al-Qadisiyah University, College of Education, Department of History

Abstract:
This research deals with the impact of social norms on the social system during the era of the Rustamid state, one of the Islamic states that emerged as a result of the efforts of the Ibadi Kharijites in the central Maghreb. This state, which extended for more than a century and a quarter, witnessed radical transformations that affected various aspects of political, economic, and social life in the region. The research begins by defining the geographical framework of the Islamic Maghreb, clarifying its borders and divisions, and discussing its indigenous inhabitants, the Berbers, and their conversion to Islam. It also provides a comprehensive definition of customs and traditions within the concept of social norms, and then moves on to review the history of the Rustamid state, since its inception at the hands of Abd al-Rahman ibn Rustam, through the establishment of its capital, Tahert, and its most prominent rulers, up to its political role in shaping the events of the Islamic Maghreb. The research also addresses the relationship between the political and social aspects, reviewing the stages of prosperity of Tahert society through its demographic composition and classes, including the status of women, and the role of financial resources in supporting this prosperity. It also discusses the challenges that led to the decline of the state and its impact on the social system. The research provides a deeper understanding of the social conditions in the Islamic Maghreb

during the Rustamid period, and highlights the role of social norms in shaping the social and political system of this state.

Keywords: Social norms - social system - Rustamid state - women - financial resources

المقدمة

كان المغرب الإسلامي مرحاً للعديد من الاحداث والتغيرات التي شملت مختلف المجالات السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية وحتى الثقافية مما جعله يشهد تحولات جذرية طرأت على الحياة الاجتماعية خاصة خلال القرون الثلاثة الهجرية الأولى، ومن بين تلك الدول الإسلامية التي هدت هذه التحولات، الدولة الرستمية التي تعتبر من بين أهم المواضيع التي تحتاج إلى دراسة أعمق لأجل الوصول إلى فهم مختلف الجوانب الاجتماعية لهذه الدول التي عمرت أكثر من قرن وربع قرن.

لذلك اخترنا موضوع أثر الاعراف الاجتماعية في النظام الاجتماعي في عصر الدولة الرستمية لدراسة إحدى الدول الإسلامية التي قامت نتيجـة للجهود التي قام بها الخوارج الإباضية، بعد أن تمكنوا من الانتقال بمذهبهم من مرحلة الدعوة إلى مرحلة التطبيق العملي لمبادئهم، فكان انتقال عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط إيـذانا بظهـور الدولـة الرستمية، التي أصبحت قوة جديدة لها أثرها البالغ في تشكيل أحداث المغرب كله إلى نهاية القرن الثالـث الهجري .

ونظرا لأهمية الدراسة سلطنا الأضواء على الجانب الاجتماعي على هذه الدولة لأنه من المواضيع المهمة التي لها تأثير مباشر على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للدولة الرستمية، خاصة مع قلة المادة التاريخية، والى أي مدى أثرت الأعراف الاجتماعية على النظام الاجتماعي للدولة الرستمية في المغرب الأوسط، وكيف يمكن تبيين ذلك التأثير؟ وقد اندرجت ضمن ذلك تساؤلات جزئية هي- :

ـ ما هي الظروف التي قامت فيها الدولة الرستمية؟ كيف وأين نشأت؟

ـ وهل الظروف الاجتماعية التي فرضت نفسها على الجانب السياسي والاقتصادي بالدولة؟

ـ هل هناك نظام اجتماعي خاص بالدولة الرستمية او نظام خاص بسكان المغرب؟

ومما جعلني أتطرق إلي دراسة هذه الجوانب كلها رغبة في إثراء رصيدي العلمي والمعرفي من الناحية التاريخية وكذلك إعادة إحياء روح البحث في هذا النوع من الدراسات وكيف كانت الأوضاع الاجتماعية العامة للمغرب الإسلامي قبيل نشأة الدولة الرستمية وبعد قيامها؟

تضمن المبحث الاول المدلول الجغرافي للمغرب الاسلامي واوضحت فيه حدود المغرب والاسماء التي كانت تطلق على المغرب وان العرب المسلمين قسموا بلاد المغرب الى ثلاثة اقسام حسب قربه وبعده عنهم، وكذلك تناولت فيه سكان المغرب قبل الاسلام اي البربر ومن هم واصلهم وكيف اعتنقوا الاسلام . وتضمن تعاريف عن مفهوم العادات والتقاليد التي تندرج ضمن مفهوم العرف او الاعراف الاجتماعية .

المبحث الثاني فكان لمحة تاريخية عن الدولة الرستمية الاوضاع التي جاءت بالرسميين الى المغرب ومن هم الرستميون ومن اسس هذه الدولة وايضا بناء العاصمة تاهرت وكذلك حدود الدولة الرستمية واهم الحكام الرستميين.

المبحث الثالث اثر الجانب السياسي على الجانب الاجتماعي للدولة الرستمية والسكان الذي مر بمرحل منها مرحلة الازدهار وايضا الموارد المالية التي ساعدت على نمو المجتمع التاهرتي كما تناولت التركيب السكاني وطبقات المجتمع وهم الطبقة العامة والخاصة وكذلك مكانة المرأة ومن ثم مرحلة التراجع للدولة الرستمية ومن ثم الخلاصة ونتائج البحث.

المبـحث الاول:

المدلول الجغرافي للمغرب الاسلامي

المغرب جزيرة أحاطت بها البحار من كل جهة، بحر القلزم من المشرق ومن الشمال البحر المتوسط، من الغرب البحر المحيط، فصار المغرب كالجزيرة دخل فيها مصر والقيروان والمغرب الاوسط والزاب والسوس الأقصى (السامرائي، 1438هـ: ص5)، ولقد اشتمل المغرب الاسلامي على بلاد الشمال الافريقي المختلفة الممتدة من حدود مصر الغربية إلى المحيط الاطلسي، أي من حدود دواحة "سيوة" المتاخمة للبلاد المصرية شرقا الى ساحل المحيط الاطلسي غربا والى ضفة وادي النيجر جنوبا (الحريري، 1987م: ص13).

أما عن تحديد بلاد المغاربة في شمال القارة الافريقية، حيث تظهر خريطتها على شكل رباعي منتظم ويحدها من الشمال البحر المتوسط ومن الجنوب الصحراء ومن الغرب المحيط الاطلسي وشرقا مصر(السامرائي، 1438هـ: ص10)، وهي تمتد بين خطي 18° - 38° شمال خط الاستواء وبين خطي طول 25° شرقا و17° غرب خط غرينيتش وهو ما أعطاها موقعا استراتيجيا، فهي تنتمي إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط وتشكيل الجزء الشمالي من القارة الافريقية مما مكنها أن تكون حلقة ربط بين المنطقتين(بوهدي، 2019: ص8).

و لقد اختلف المؤرخون والجغرافيون في إعطاء تسمية أو مصطلح موحد لهذا الاقليم حيث عرفت بلاد المغرب منذو أقدم العصور بأسماء مختلفة فكان الاغريق يسمون القسم الشمالي منها الذي كان يسكنه العنصر الابيض باسم ليبو أو ليبيا، بينما كانوا يطلقون على الصحراء اسم بلاد الاحباش السود، أما لفظ إفريقية فقد أطلقه الرومان على الاقليم الذي يقابل اليوم الجزء الشمالي الشرقي من الجمهورية التونسية، ويشتمل على قرطاجة وما حولها حتى نوميديا غربا(ابن الصغير، 1985: ص50).

وأيضا أطلقت تسميات أخرى كنوميديا وشمال إفريقيا وبلاد البربر، واستمر الحال كذلك إلى أن دخل الاسلام إلى هذه البلاد وعم مصطلح المغرب الاسلامي والذي أطلقه الفاتحون المسلمون على المغرب الكبير في القرن الاول الهجري(بوهدي، 2019: ص9).

وقد قسم المسلمون في مصر والشام المغرب حسب قربه وبعده عنهم، حيث قسم المغرب إلى ثلاث أقسام:

الاول المغرب الادنى الذي يبدأ من غرب الاسكندرية شرقا إلى مدينة بجاية غربا فالمغرب الادنى يشمل تونس وبعض الاجزاء الشرقية من الجزائر وعاصمته القيروان أيام الاغالبة والمهدية أيام الفاطميين ثم مدينة تونس فيما بعد حتى اليوم(السامرائي، 1438هـ: ص6).

الثاني المغرب الاوسط وسمي بالأوسط لكونه يتوسط المغربيين الادنى والاقصى ويشمل بلاد الجزائر ويمتد من تاهرت حتى وادي ملوية وجبال تازة غربا وقاعدته تلمسان.

الثالث المغرب الاقصى يمتد من وادي ملوية شرقا إلى المحيط الاطلسي غربا وعاصمة المغرب الاقصى ترددت بين مدينة فاس ومراكش(ابن الصغير، 1985: ص52).

أما بخصوص لفظ المغرب، فالمراد به هو كل ما يقابل المشرق من البلاد وقد اختلف الجغرافيون والمؤرخون المسلمون في تحديد مدلوله فجعله البعض يشمل بلاد شمال أفريقيا بالإضافة إلى الاندلس وجميع الممتلكات الاسلامية في حوض البحر المتوسط ولكن على الرغم من كل هذه التقسيمات السابقة فإن جمهرة المؤرخين والجغرافيين العرب اتفقوا على تحديد كلمة المغرب بالأراضي الاسلامية الممتدة غربي مصر إلى المحيط الاطلسي(الحريري، 1987م: ص13).

تعريف البربر

يعتبر البربر من أقدم السكان الذين استوطنوا بلاد المغرب أو بالأحرى السكان الأصليون ولقد أطلق المؤرخون على سكان المغرب القديم العديد من التسميات يرتبط بعضها بالمجال الجغرافي الذي كان يسكنه جزء من الناس والبعض الأخر بنوع النشاط الذي يمارسونه أو بالمنظر الخارجي واللباس الذي كانت تلبسه جماعة دون الأخرى، أما البربر أنفسهم كانوا يطلقون على أنفسهم هذه التسمية بل يعرفون أنفسهم بأسماء شعوبهم وقبائلهم، ولقد أرجع فئة من المؤرخون الذين أرخوا أصل كلمة بربر أنها أطلقها اليونانيون على كل من يتكلم الإفريقية وانتقلت إلى الرومان، ثم أخذها عنهم العرب(بوهدي، 2019: ص11).

فكلمة البربر مصدرها يونانية وهي تعني اللفظ والكلام غير المفهوم، إذ يعنون بها كل الذين يتكلمون لغتهم ومع انتقال موازين القوي العالمية إلى الحضارة الرومانية أطلقوها بدورهم على كل الشعوب والقبائل الخارجة عن نفوذهم بمصطلح البربرة أي كل الشعوب التي لا تتكلم اللاتينية(كامب، 2010: ص13)، ويقال أن الشعب البربري نزح إلى شمال إفريقيا بعضهم من أوربا والبعض الآخر من اليمن عن طريق الحبشة ومصر وليبيا وانتشروا في ربوع المغرب وجهات من الصحراء وأطراف من مصر، ولقد اختلف المؤرخون حول أصول البربر، حيث نجد مؤرخي العصر القديم (اليونان ـ الرومان) تتجه آرائهم نحو جعل أصل سكان شمال إفريقيا خارجين عن المنطقة فأبو ا التاريخ هيرودوت لا يتردد في نسبهم إلى الطرواديين الذين طردوا من طروادة، ورواية أخرى ترد أصل البربر الى الكنعانيون الذين هاجروا من فلسطين(الحريري، 1987م: ص10).و ترد رواية أخرى عن الاغريق تنسب البربر إلى مدينة ميسينا، ويذهب سالوست أن سكان شمال إفريقيا الأوائل هم الجيتوليون والليبيون. وبعد ذلك قاد هيرقل إلى المنطقة عناصر ميدية وأرمينة وفارسية انطلاقا من إسبانيا، خطط الميديون والأرمن مع الليبيين بينما اندمج الفرس مع الجيتوليين(كامب، 2010: ص15).

وورد عن سترابون الذي يرجع البربر إلى الهنود، وبطليموس يردهم إلى الموسينين(بوهدي، 2019: ص13).

ويلاحظ من خلال هذه الروايات أنها تحمل طابعا أسطوريا تستقيه من أساطير وأخبار تاريخ اليونان والرومان، كما أنها تجعل أصولهم كلها شرقية وأنهم لم يستطيعوا إخفاء وجود سكان أصليين جاءت عناصر جديدة لتختلط بهم(ابن خلدون، 2000م: ص601).

اما أصول البربر عند المسلمين في العصر الأوسط يعمه الغموض والاختلاف وتناقض المؤرخين حول أصل نسب البربر، فأبن حزم الأندلسي يقول أنهم من بقايا نوح عليه السلام وادعت طائفة أخرى من المؤرخين أن البربر من ولد حام من الشام عندما نفاهم ملكهم جالوت ومنه يرجع النسابة العرب أن البربر هم خليط من الكنعانيين والعمالقة نزحوا جميعا إلى بلاد المغرب بعد مقتل جالوت(كامب، 2010: ص17).

وهنا رجح المؤرخون أن البربر يرجع نسبهم إلى اليمن أو جنوب الجزيرة العربية حيث قيل أنهم انتقلوا من اليمن إلى بلاد المغرب في ثالث موجات رئيسية وذلك خلال عصور الحضارة اليمنية التليدة، فكانت الموجة الأولي من البربر الذين نقلهم الملك افريقش بن ذي المنارين الرائش ملك سبأ 12 ق م(ابن خلدون، 2000م: ص619)، إلى المغرب عندما غلبه الآشوريون أو الأثيوبيون هرب إلى مصر ولما وجد نفسه مطاردا عاجزا عن مقاومة العدو، استشار قومه في أي سبيل يسلكونه للنجاة فأجابوه صارخين (البربر) وهنا وصلوا إلى صحراء افريقيا، ثم وقعت موجة انتقالية ثانية في عهد الملك ياسر ينعم ملك سبأ وذي ريدان في القرن 9 ق م(ابن الصغير، 1985: ص44)، ثم وقعت موجة أو الهجرة الثالثة من اليمن إلى بلاد المغرب في عهد أبى كرب أسعد تبع ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمانت وأعراب الطور وتهامت، وذلك في القرن 7 ق م، أما ابن خلدون فقد كرر أن البربر من نسل كنعان بن حام بن نوح وتحديدا من اليمن أي نه يستثني منهم صنهاجة وكتامة حضرموت(ابن الصغير، 1985: ص44)، ويذكر أن علماء النسب متفقون على أن البربر يجمعهم جذمان عظيمان وهما برنس وماذغيس ويلقب ماذغيس بالبتر فلذلك يقال شعوب البتر ويقال لشعوب برنس وان البرانس بتر، وهوما أخوان ومن نسل مازيغ بن كنعان ابن حام بن نوح(ابن خلدون، 2000: ص622).

ومن الجدير بالذكر أن معظم روايات العرب ذات طابع أسطوري، ولكنها تحمل في ثناياها بعض الحقيقة التي تعبر عن هجرة البربر إلى الشمال الإفريقي وهي هجرات فينيقية إلى قرطاجة، كما أن اتصال البربر الحضاري قد أوجد نوعا من الاختلاط في جنس البربر بين فروق حامية، وأخرى سامية(كامب، 2010: 18).

اقبل البربر على اعتناق الاسلام منذ السنوات الاولى للفتح الاسلامي وشاركوا العرب في الغزوات والمعارك ضد الروم وضد بني قومهم الذين لم يدخلوا الاسلام بعد واستمروا البربر يدخلون في الاسلام تباعا مع تقدم

الفتوحات وبقيت قلة صغيرة على المسيحية واليهودية والوثنية(ابن الصغير، 1985: ص44). وقد مثّل البربر الطبقة العظمى من مجتمع تاهرت، وهم نوعان مستقرون داخل تاهرت، ورحالة يقيمون خارج المدينة، وعلى رأس المستقرين قبيلة نفوسة التي مثلت في وقت من الأوقات العصب الأساسي للدولة وأصلها من نفوسة الجبل هاجرت إلى تاهرت، أما قبيلة لواتة فمنذ مصاهرتها للإمام عبد الوهاب أضحت تلعب دورا مهما في الحياة السياسية(السامرائي، 1438هـ: ص8)

مفهوم الاعراف (العادات والتقاليد)

العرف هو عبارةٌ عن مجموعةٍ من القواعد، والمفاهيم، والمعايير، والمقاييس الاجتماعية المتفق عليها أو المقبولة لدى العامة، وغالباً ما تكون على هيئة عادة اعتاد عليها الناس(محمدي، 1068: ص1).

بالإضافة إلى أنّه قد تتبدّل بعض القواعد أو العادات لتصبح قانوناً، وقد يتمّ إدخال تشريعٍ تنظيميٍّ مكتوبٍ من أجل صياغة أو تنفيذ العُرف، مثل: الأنظمة، والقوانين، والتعليمات كالتي من خلالها تمّ تحديد قواعد السير(هشام، وجالئي، 1937: ص76)، كتحديد جانب الطريق الذي تسير به المركبة حسب نوعها أو حجمها، أو تحديد أشكال إشارات المرور(محمدي، 1068: ص2).

أمّا في البيئة الاجتماعيّة، فقد يكون العُرف قانونٌ غير مدوّن من العادات، مثل: الطريقة التي يلتقي بها الناس ويرحبون ببعضهم كالمصافحة باليد وتقبيل بعضهم البعض(عبد اللطيف، 2001م: ص410)، والعرف هو الاختيار بين بديلين او اكثر حيث تكون القاعدة او البديل محل اتفاق بين المشاركين وغالبا ما تشير الكلمة الى عادات غير مكتوبة يتشاركها افراد المجتمع(هشام، وجالئي، 1937: ص77).

والعادة في اللغة: هي ما يكرر الإنسان العودة إلى إليه مرارا، واصطلاحا هي: سلوك اجتماعي متكرر يتم توارثه ويمكن أن تكون العادة فردية، أو هي سلوك اجتماعي جبري ملزم، تتكون انطلاقا من قيمة دينية وعرفية تجعل الأفراد تبعا(مساعدة، 2019: ص76) .

أما التقاليد فهي في اللغة: مصدر للفعل الرباعي (قلّد) بتضعيف الالم المفتوحة(بوهدي، 2019: ص14)، يقال قلّد فلان الامر أي الزمه اياه كما يقال قلد الماء في الحوض والبن في السقاء يقلده قلدا أي جمعه فيه ومفردة تقليد(الجازي، 2018: ص1) هو مأخوذ من القلادة في العنق ولعل قولهم قلد به أمر كذا إذا وليته أياه.

اما اصطلاحا: فالتقاليد هي عبارة عن مجموعة من قواعد السلوك التي تنشأ عن الرضا والاتفاق الجمعي(مساعدة، 2019: ص76)، وهي تستمد قوتها من المجتمع وتحتفظ بالحكم المتراكمة وذكريات الماضي التي مر بها المجتمع يتناقلها الخلف من السلف جيل بعد جيل(محمدي، 1068: ص3)، فالتقاليد هي كل ما اتفقت عليه الجماعة ودل على الماضي والقديم(الجازي، 2018: ص1).

معلومات عن العرف

* أن يكون قديماً وثابتاً وخاصّاً بمكان دون الآخر، وقد تشترك بعض المناطق بمجموعةٍ من الأعراف.
* غالباً ما تشير كلمة العرف إلى عادةٍ غير مكتوبةٍ يتشاركها الأشخاص في المجتمع.
* تشير القاعدة الاجتماعية في علم الاجتماع إلى أنّ أيّ عُرفٍ اجتماعيّ يتقيّد به الأفراد هو عادةٌ في المجتمع، حيث إنّ هذه القواعد غير مكتوبة في القانون.
* لا يمكن تطبيق الأعراف في المحاكم لأنّها بعض القواعد غير القانونية والتي لا يلتزم الجميع ولا يترتب على عدم القيام بها أيّ نوعٍ من أنواع العقوبات إلّا إذا كانت تتعارض مع أحد القوانين(جعفري، 2018م: ص19).

المبحث الثاني: لمحة تاريخية عن قيام الدولة الرستمية

لابد من الرجوع إلى سنة ١٦٠ هـ لمعرفة أوضاع المشرق الإسلامي لأن المغرب في هذه الفترة كان مرتبط ارتباطا مباشرا مع المشرق، وأهم ما ميز هذه الفترة هو ما يعرف بثورات الخوارج، وانهيار الدولة الأموية لتحل محله الدولة العباسية (الدور الأساسي في إسقاط الدولة الأموية حيث ان فرق الخوارج كثيرة إلا أنه لم يصل إلى المغرب الإسلامي سوى الإباضية والصفرية، وتنتسب الأولى إلى عبد الله بن أباض المتوفى ٢هـ وعاش إلى زمان عبد الملك بن مروان، أما الثانية فهم أتباع عبد الله الصفار، وإليه ينسب وقيل سموا بذلك لصفرة وجوههم من كثرة العبادة.
عرف ظهور الخوارج إثر موقعة صفين التي جرت بين معاوية والامام علي (عليه السلام) فكان لهذه الواقعة أثر على بلاد المشرق الإسلامي، هذا ما أدى إلى ظهور الاضطرابات والثورات، من هنا اضطر الخوارج وقد كان من بين فرق (قرواز، ٢٠١٢: ص١٥)، للجم إلى أطراف الدولة الإسلامية منها بلاد المغرب الإسلامي الخوارج التي وصلت إلى المنطقة فرقتين : الصفرية في جنوب المغرب الأقصى والإباضية في المغرب الأوسط.
ان الخوارج وسعوا رقعة الاسلام بفضل حيويتهم وميلهم الى النقاش والجدل اعتنق المغاربة مذهبهم تعبيرا عن نزوعهم الدائم الى الاستقلال، لكن المذهب الخارجي كان يحمل في طياته بذور الخلاف كثير بينهم النقد والجدال حول العقائد وصار خلع الخلفاء بل واغتيالهم عندهم سنة متوارثة فلم تستقر أمورهم ولم يكونوا دولة كبيرة انما اسسوا دويلات منها البرغواطة على ساحل المغرب الاقصى سنة ٧٤٤,١٢٧ ودولة بني مدرار في سجلماسة سنة ٧٥٧,١٤٠ ودولة الرسمتين في تا هريت (العروي، ١٩٩٦: ص١٤٩)، لقد وجد دعاة الإباضبة سهولة في نشر مبادئهم نتيجة للظروف المضطربة والتي تمثلت أساسا في السياسة السلبية لولاة بني أمية على السكان، من هنا وجد البربر ضالتهم في ظل هذه المبادئ، وفي غمرة هذا الصراع القائم مع الخلافة في المشرق تراجعت جماعات الصفرية، لتترك المجال فسيحا للفرقة الثانية، فكانت جهود هذه الاخيرة مقدمات للبنا السياسي في المغرب الاسلامي فبدؤوا بالدعوة إلى مذهبهم، وفي وقت وجيز انتقلت إلى مرحلة التطبيق العملي تمهيدا لقيام أول دولة تقوم في المغرب الأوسط (قرواز، ٢٠١٢: ص17)

1- من هم الرستميون
الرستميون او بنو رستم سلالة حاكمة تنتمي الى المذهب الاباضي حكمت بلاد المغرب الاوسط بين (160هـ و909م) مقرها كان مدينة تاهرت او تيهرت وهي حاليا مدينة تيارت في الجزائر(ابن خلدون، 2000: ص615). وخلال القرن الثامن والتاسع حكمت ثلاث سلالات في المغرب الكبير وهم الاغالبة السنيون بالقيروان والادارسة الشيعون بفاس والرستميون الاباضيون بتيهرت (الحريري، 1987: ص95).
يعد عبد الرحمن بن رستم فرخزاد المؤسس الفعلي للدولة الرستمية ويختلف المؤرخون في نسبه، فالبكري وابن حزم يرجعان نسبه إلى سلالة ملوك الأكاسرة الساسانيين الفرس، أما ابن خلدون فيرى بأنه من أبناء رستم قائد الجيش الفارسي المشهور في معركة القادسية. من جهة أخرى، ياقوت الحموي فيرجعه إلى مولى عثمان بن عفان وهو بهرام أحد أبناء كسرى يزدجرد(المالكي، 2014: ص207)، وتعود صلة عبد الرحمن بن رستم بالمغرب العربي إلى طلائع الفتوحات الإسلامية، فقد ذهب عبد الرحمن إلى إفريقية وهو طفل فترعرع في القيروان، وحسب الشماخي فإن عبد الرحمن بن رستم سافر مع أمه إلى القيروان إثر زواجها من رجل هناك بعد أن توفي زوجها رستم بن بهرام (قرواز، 2012: ص18). حكمت الدولة الرستمية عدة أجزاء من المغرب الأوسط وإقليم طرابلس ومنطقة الجريد وامتد حكمها حتى قيام الدولة الفاطمية، حيث المناطق التي ينتشر فيها المذهب الإباضي، وامتدادها من حدود جبال تلمسان غربا وانتشار نفوذها إلى إقليم طرابلس وجبل نفوسة شرقا على امتداد 1300 كلم في السهوب وفي واحات جنوب الجزائر، ويصعب تحديد حدود واضحة للدولة الرستمية بشكل دقيق (ابن خلدون، 2000: ص615).تعود بذور الفكر الخارجي في المغرب

الإسلامي إلى حدود أواخر الخلافة الأموية وبداية العباسيين حيث كان دعاة وعلماء المذهب يتوجهون للمغرب الإسلامي وينشرون دعوتهم، ويحرضون على الخلافة العباسية، وخلالها انتشرت الثورات ضد الحكم العباسي واستقل بعض من ينتمي لمذهب الصفرية في سجلماسة، وانتشر مذهب آخر وهو الإباضية في جبل نفوسة وبعض مناطق المغرب وخلالها نشأت الدولة الرستمية (الحريري، 1987م: ص95).

2- وصول عبد الرحمن بن رستم الى المغرب

بلغ عبد الرحمن بن رستم بقابس وفاة أبي الخطاب، تفتت جيشه، وتفرق عنه وثارت قابس بعاملها، عبد الرحمن ّفرالى القيروان فوجدها ثائرة عليه احتمل أهله وولده وتوجه إلى المغرب الأوسط، ونزل على لمائة لقديم حلف بينه وبينهم، ذلك أن النزعة المذهبية وحدها لا تكفي(ابن الصغير، 1985: ص56)، ونزل على وادي سوفجج الذي ينبع من سفح جبل سوفجج، يقع بين مدينة سلالة شرقا والسوفر غربا وجنوب مدينة تيهرت، كان هذا الجبل في غاية المنعة والحصانة تحصن فيه عبد الرحمن ،حيث كان عامرا بالإباضية وعندما علم بن الأشعث بذلك، قرر منازلته والقضاء عليه قبل أن يتعاظم أمره، ويمتد خطره إلى القيروان(الحريري، 1987م: ص97)، وسار بقواته محاصرا للجبل زمنا، مستخدما كل الحيل في دخوله والاستيلاء عليه، لكنه فشل في ذلك، وتسلل الملل إلى قواته، وخاف أن ينقلب الأمر ضده، لا سيما بعد انتشار داء الحمى والجدري في عسكره ،فقرر العودة إلى القيروان والتحصن بها وبقي عبد الرحمن هناك. حتى اجتمع عدد كبير من فضلاء الإباضية وكبارهم حيث توافد عليه مجموعة من العلماء من جميع الأقطار من طرابلس وجبل نفوسة ثم بويع له بالإمامة نظرا لعلمه ومكانته وكان ذلك عن طريق الشورى(قاضي، 2014: ص9)، وأجمعوا على مبايعته ليكون رئيسا لهم ،وكان لابد لمؤسس دولة الرسمتين أن يؤسس مدينة ينزل فيها هو وأتباعه وأنصاره تكون مقرا لدولته ،و بالفعل هذا ما قام به بعد أن بويع، فأنشأ مدينة تيهرت.

3- بناء مدينة تيهرت

هناك اختلافات كثيرة بين المؤرخين في تحديد تاريخ بنائها فمنهم من يقول انها كانت سنة 144هـ/761م، وهذا الرأي ضعيف لأن عبد الرحمن بن رستم قد حاصر مدينة طنبة سنة 154هـ وبعدها عاد الى اقليم تيهرت وفي نفس هذه السنة انهزموا الاباضية في طرابلس وقتل امامهم ابو حاتم الملزوزي وعند مقتل هذا الزعيم فكر الاباضيون في جمع صفوفهم مرة اخرى من اجل بناء مدينة لهم وهناك التفوا حول عبد الرحمن بن رستم وبهذا يكون تاريخ بناء المدينة هو التاريخ الثاني 160هـ بينما الفترة المحصورة بين 144هـ - 160هـ كانت فترة حروب بينهم وبين العباسيين حالت دون رغبتهم في بناء هذه المدينة (قاضي، 2014: ص9).

أما فيما يخص اختيار منطقة تيهرت عاصمة لهذه الدولة فيرجع بالدرجة الأولى لموقعها الجغرافي الممتاز ولأنها منطقة داخلية لاسيما وأنها بعيدة عن نفوذ العباسيين في القيروان، يضاف إلى ذلك أنها تتحكم في المسالك التجارية مثل الطريق الذي يربط بين مدينة فاس والقيروان مرورا بتيهرت وكذلك المسالك التي تربطها بموانئ البحر الأبيض المتوسط وبالمناطق الداخلية (الحريري، ١٩٨٧م ص٩٧)، علاوة على أنها تقع فوق هضبة على مستوى سطح البحر مما يسمح لها بمراقبة المناطق المجاورة لها تحسبا لأي خطر وزيادة على ما تقدم فإن كثيرا من النصوص التاريخية تؤكد على وجود ثروة مائية بالقرب منها لتمكنها من تنمية مزروعاتها، وإقامة المشاريع العمرانية حولها، ويضاف إلى ذلك وجود أراض خصبة بجوارها غنية بالمراعي الفسيحة مما يستقطب مجموعة كبيرة من القبائل للتحالف معها واستغلال تلك المراعي في تربية المواشي، التي تشكل المصدر الأساسي لاقتصادها وكان من الصعب على عبد الرحمن، أن يتخذ من المدينة الرومانية القديمة المجاورة مكان للمدينة الجديدة عاصمة لدولته، ولكن معارضة أهلها كان سببا في تخليه عن فكرة بناء المدينة فوق أراضيهم (ابن الصغير، ١٩٨٥: ص١١٥)، وبالتالي بنيت تيهرت الحديثة أو الرستمية بمكان قريب من تيهرت الرومانية في منطقة يقال لها تغدامت ولعل عدم رغبة عبد الرحمن ابن رستم في إقامة عاصمة على أنقاض المدينة القديمة (المالكي، ٢٠١٤: ص٢٠٧)، يرجع الى كون المسلمين الأوائل كانوا يشيدون مدنهم بعيدا عن المدن الرومانية والبيزنطية فمثلا مدينة تونس لم تبن على انقاض قرطاج

الفينيقية (خامت وحمداوي، ٢٠١٥: ص٢٢) رغم أهميتها ولعل عمل القادة المسلمين هذا يندرج في إطار عدم طمس الحضارات السابقة والحفاظ على الآثار الإنسانية التي تخلد أعمال الإنسان عبر المراحل التاريخية وهذا عكس الرومان الذين شيدوا مدنهم على أنقاض المدن الفينيقية وغيرها (ابن الصغير، ١٩٨٥: ص١١٧) من الحضارات السابقة.

أما فيما يخص هذه المرحلة فقد طرأ عليها تغير واضح في حياة المجتمع الرستمي عامة وذلك بدخول عناصر مشرقية إلى تيهرت (المالكي، ٢٠١٤: ص٢٠٧)، من الأثرية وكبار التجار، ومن ثم ظهرت حركة عمرانية معتبرة تتمثل في بنا القصور والمساكن الجميلة وخاصة وأن هؤلاء التجار استغلوا موقعها الجغرافي الممتاز وتحكمها في الطرق التجارية ولعل أهم ظاهرة تتميز بها عاصمة الرستميين (قاضي، ٢٠١٤: ص١٠) هو عدم وجود دار الإمارة بجانب المسجد في بداية العهد، كما هو متبع في بنا مدن وعواصم الدول الإسلامية ولعلى ذلك راجع إلى كون الإمام عبد الرحمن بن رستم كان، يناقش أمور الدولة والرعية في المسجد كما هو الحال في عهد الخلفاء.

كما أن مدينة تيهرت الرستمية قد بنيت على نمط الحواضر الإسلامية لأنها كانت محاطة بسور كبير له أربعة في أبواب، وهي باب الصفا وباب المنازل وباب المطاحن، وباب الأندلس، وهذه الظاهرة تحصين المدن الإسلامية وغلق أبوابها في الليل وفتحها في النهار ظلت شائعة في المغرب الاسلامي (قاضي، ٢٠١٤: ص ٩).

4- حدود الدولة الرستمية :

لم تعرف الدولة الرستمية حدودا ثابتة ومستقرة ومعينة ظاهرة المعالم، خلال تاريخها العريق والطويل الآن في حقيقة الأمر آنذاك الحدود معروفة في وإنما وضعت حدودها الجغرافية من باب التقريب لتوضيح الرقعة تلك الفترة انما وضعت حدودها الجغرافية من باب التقريب لتوضيح الرقعة الجغرافية التي جرت فيها الأحداث التاريخية والسياسية (بوخاوش، ٢٠١٥: ص٢٠). قد حكمت الدولة الرستمية من تلول منداس شمالا إلى قرب غليزان ومن غليزان الى فرندة ثم ينعطف خطها شرقي جبل عمورواللي ميزاب ووجلة، وجنوبا باب الأغواط (باب الصحراء الجزائرية) وهذا يبين أن هذه الدولة قد استحوذت على جميع الزاب الجزائري الحاضر (الحريري، 1987: ص97).

5- أهم حكام الدولة الرستمية

كان يطلق على حكام الدولة الرستمية بالأئمة " جمع إمام " وهذا اللقب يسير على الإمام كان حاكما مدنيا أو إماما دينيا على مقتضى الخلافة العباسية في العالم الاسلامي المذهب الإباضي لا يحصر الإمامة في أسرة واحدة ولكن أعيان تيهرت رأوا أن يحصروها في البيت الرستمي لكي لا تنافسهم القبائل البربرية (المالكي، ٢٠١٤: ص٢١٠). على الرغم من أن الإباضية تظاهروا بحرصهم على تطبيق مبدأ الشورى والانتخاب، هذا المبدأ الذي تمثل آنذاك بسبعة من زعمائهم . وقد انعكس ذلك سلبا على مسيرة الإمارة واستقرارها، ثم ظهور مجموعة من الإباضين أعلنت رفضها المطلق لحكم عبد الوهاب بن عبد الرحمن، وعرفوا هؤلاء في التاريخ الإباضي بالنكارية، وقد شكلوا هؤلاء خطر للأمارة وحاولوا الانفصال . ثم أن الإباضيين فشلوا في تحقيق مبادئهم التي أعلنوها بعد أن سلكوا الطريق نفسه الذي نكروه على اعدائهم في ابناء عبد الرحمن بن رستم واحفاده سنة ١٦٨هـ / ٧٨٤م، إذ جعلوا الحكم وراثيا خلفه مباشرة أبنه عبد الوهاب، على الرغم من تظاهرهم بالشورى والانتخاب (بوخاوش، ٢٠١٥: ص٢٢) . وقد عمل الرستميون على بناء حضارة مغربية في المنطقة، فنشطت الحركة العمرانية، والاقتصادية والاجتماعية، وانتشرت الحركة العلمية ونشط التعليم حتى كان الأمراء يقربون أهل العلم عمن سواهم، وكانت مدينة تيهرت عاصمة العمران والثقافة في المغرب الأوسط في هذا العصر (بوخاوش، ٢٠١٥: ص٢٦).

تولى الحكم في الدولة الرستمية عدد من الأئمة العدول، يتم اختيارهم من قبل العلماء والرعية، فكانت الدولة الرستمية على نهج الخلافة وقد اشتهرت الدولة بعدالة أئمتها وصلاحهم وتقواهم وعلمهم (الحريري، ١٩٨٧: ص٩٧)، ولقد تعاقب عدد من الأئمة الرستميين على السلطة في تيهرت كان أولهم الإمام عبد الرحمان بن رستم ووصولاً إلى يقظان بن محمد عام .

بويع عبد الرحمن بن رستم بالإمامة في تاهرت فأحسن السيرة في حكمه ولم ينقم عليه أحد من رعيته أو من القبائل البربرية، كما أنه بويع الإمارة من قبل أي في سنة 144هـ، ثم تلتها المبايعة بالإمامة 160هـ وأصبح أول أئمة الدولة الرستمية التي اشتق اسمها من اسمه رستم(ابن الصغير، 1985: ص119).

عبد الرحمن بن رستم 160 -171 هـ / 776 -787 م

عبد الوهاب بن عبد الرحمن 171- 211 هـ / 787-826 م

أفلح بن عبد الوهاب 211 - 240 هـ / 826 - 854 م

أبي بكر بن الأفلح 240 - 241 هـ /854 - 854 م

ابي اليقظان بن الأفلح 241 - 281 / 855 - 894 م

ابي حاتم يوسف بن محمد 281 -294 هـ / 894 - 906 م

- يقظان بن محمد أبي اليقظان 294 - 296 هـ / 906 - 908 م(السامرائي، 1438هـ: ص10).

ارسل عبد الله الى اليقظان بطلب الاجتماع به فخرج اليه اليقظان ومعه بنوه واخوته واتباعه (ابن الصغير، 1985: ص129) وعلى بعد اميال من تاهرت التقى اليقظان ومن معه بأعبد الله وقام بقتلهم عن اخرهم عام 296هـ(بوخاوش، 2015: ص26).

وهكذا وبعد قيام الدولة الفاطمية وقضائها على حكم الأغالبة استولت الجيوش الفاطمية على تيهرت ومناطق نفوذ الرستميين(ابن الصغير، 1985: ص129) وخلع آخر حكام الرستميين وهو يقظان بن محمد ففر الإباضيون إلى ورقلة ثم وادي مزاب حيث استقر بهم المطاف.

المبحث الثالث: انعكاس الجانب السياسي على الجانب الاجتماعي

أدى قيام الدولة الرسمية في بلاد المغرب إلى إنشاء مدن، أسهمت في تحقيق الاستقرار الاجتماعي والبشري(عليلي، 2018: ص71)، فكانت الدولة لا ترتبط بالمحافظة على قطعة التراب بل كانت الدولة نفسها في خدمة المجتمع، حيث كان العدل والإحسان هي المبادئ التي سار عليها جميع الأئمة الرستميين وعليها بنو صرحهم السياسي(ابن الصغير، 1985: ص60).فقد سكنت في تاهرت كل من قبيلة لواتة ولماية ونفوسة وسدراتة وهذا طبيعي باعتبارها من اصل المكان من جهة ولان هذه القبائل كانت اول من قدم السند والدعم لعبد الرحمن بن رستم في تأسيس دولته من جهة اخرى، اما العرب فقد توافدوا على هذه المنطقة من القيران ومن المشرق، اما بعد الفتح او بعد ان ذاع صيت هذه المدينة في الافق(إسماعيل، 1985: ص110)، واما الفرس فقد كونوا لأنفسهم جالية متنفذة في الاوساط الاجتماعية والتجارية في تاهرت ثم ان وجودهم بهذه المدينة اقترن اقتران الاصل بالبيت الرستمي وهذا دليل يعزز النسب الفارسي الذي اختلف حوله المؤرخون(إسماعيل، 1985: ص111) تكاد تتفق المصادر والمراجع التاريخية على الاصل الفارسي لعبد الرحمن بن رستم بن بهرام بن ذي شرار بن سابور بن بابكان بن سابور ذي الاكتاف من اكاسرة الفرس ومعنى هذا انه ينحدر من اسرة حاكمة في بلاد فارس كان ابوه بهرام مولى عثمان بن عفان غير انه نشأ نشأة عربية وتخلق بأخلاق العرب(عليلي، 2018: ص87).والشعور بالطمأنينة على النفس والمال والحياة دفع الجاليات غير المسلمة الى الاقامة بمدينة تاهرت ويتعلق الامر هنا بطائفة اليهود حيث (ذكر ابن صغير مكان يسمى الرهادنة وهو اشارة الى الجالية اليهودية في تاهرت) (ابن الصغير، 1985: ص101) والنصارى ذكر ابن صغير مكان سماه الكنيسة وهذا يعني تواجد النصارى في تاهرت الذين استفادوا ايما استفادة من التسامح الديني الذي مكنهم من مزاولة انشطتهم وحرفهم فضلا عن ممارسة معتقداتهم(إسماعيل، 1985: ص111) فقد برع اليهود بوجه خاص في التجارة فقد كان هناك عدد من اليهود من التجار كانوا وسطاء في

التجارة بين تاهرت والاندلس والطب(ابن الصغير، 1985: ص100) وكذلك في صناعة الحلي وهي حرف تضمن حاجة الناس اليهم وهذه هي حقوق كفلها الاسلام وطبقها حكام المسلمون(عليلي، 2018: ص85).

1- مرحلة الازدهار (160 - 258هـ /777 - 872م)

يعود لقيام الدولة الرستمية آثارها الاجتماعية في حياة سكان بلاد المغرب الأوسط، فقد تحول إقليم تيهرت من غابات وغياض للسباع والوحوش والزواحف، إلى مدينة عامرة آهلة بالسكان مزدانة بالعمائر والزراعة، تترتب على ذلك انتقال السكان من حياة البداوة والترحال إلى حياة الحضارة والاستقرار(إسماعيل، 1985: ص112).

حظيت الدولة بعدد من الأئمة الأقوياء في الفترة الأولى من حيانا، تمتعت في عهدهم بالاستقرار الاجتماعي، حيث كان الأئمة فيها شديدي الالتزام بحياة الزهد والتقشف وعدم الميل إلى مظاهر الأبهة والعظمة (القاضي، 2014: ص38)، ولم تكن وظائف الدولة فيها حكرا على عصبية بعينها.

كانت الدولة الرستمية في عهد حكمك عبد الرحمن كله على الهدوء والهناء وعلى الاتحاد والمحبة، لم يشغب عليه شاغب، ولا نافسه منافس، ولا سخط أحد سياسته وسيرته، وكانت الدولة في عهده في أيام البناء والعمل والكد(وهران، 2010: ص169).وهذا الإمام عبد الوهاب مع ذكائه العلمي قاهر كبار السياسة في عصره وقد استطاع أن يحل المشاكل الكبرى، ويخمد الثورات التي برزت في عهده(القاضي، 2014: ص39) ويلخص ابن الصغير عهد أفلح الطويل فيقول، أ نه تميز بسياسة الأخذ بالعزم والحز م، فطار صيته، واستقرت أمور دولته ودان له الجميع فكان نتيجة ذلك ازدهار تيهرت، ذلك الازدهار الذي نسبه ابن الصغير إلى عهد أيام عبد الرحمن بن رستم(عليلي، 2018: ص85). وبسبب الاستقرار السياسي الذي صاحبه استقرار اجتماعي عرفت تيهرت نمو سريعا في عهد الإمام الأول، حتى أن وفد البصرة تعجبوا من تطور الأحوال في المدينة التي وسعت حدودها توسيعا كبيرا وآوت عددا أكبر من السكان، كما تمثلت المشاريع التي قام بها عبد الرحمن بن رستم في دعم الفقراء وتقوية الجيش.

2- الموارد المالية التي ساعدت على نمو المجتمع التاهرتي

كانت الإعانات الخارجية أول الموارد التي ساعدت الإمام عبد الرحمن بن رستم وأعيان الإباضية على إنشاء مشاريع من أجل التنمية والتطوير فقد قسمت هذه الأموال إلى ثلاثة أقسام ثلث في الخيل(وهران، 2010: ص169)، وثلث في السلاح، وثلث وزعت على فقراء الناس وضعفائهم، أما ما بقي من المال فاستصلحت به الأراضي البور وغرست البساتين وأجريت الأنهار كذلك أدت الهجرة إلى تنوع الأجناس والقبائل في تاهرت، حتى سميت بـ«عراق المغرب» يقول اليعقوبي في هذا الشأن (والمدينة العظمى مدينة تاهرت جليلة المقدار عظيمة الأمر تسمى عراق المغرب، لها أخلاط من الناس غلب عليها قوم من الفرس)(ابن الصغير، 1985: ص71).

أما المورد الثاني للأموال الذي اتخذته الدولة الرستمية في مختلف أطوار وجودها فيتعلق بالتجارة، حيث يقول ابن الصغير: (واستعملت السبل إلى بلد السودان، وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة) (ابن الصغير، 1985: ص70).

وقد ساعد موقع العاصمة الرستمية من السيطرة على سلسلة من الطرق التجارية التي تؤدي الى مختلف الاتجاهات وبالتالي جعلها مركزا هاما لمدة قرن ونصف تقريبا(وهران، 2010: ص169)، ومن اهم العلاقات التجارية كانت تلك التي ربطت تاهرت بالسودان والتي توجت بسفارة رستمية هناك لتعزيز هذه العلاقة وكان على رأس هذه السفارة محمد بن عرفة الذي حمل هدايا الى الامام الافلح بن عبد الوهاب الى ملك السودان وهذا دليل على النضج الذي تمتع به الرستميون في هذا الشأن في فتح اسواق خارجية ويشير في مناسبة اخرى الى ان ابا حاتم كان اثناء وفاة ابيه اليقظان في مهمة مع وجوه زناتة ليجيروا القوافل قد اقبلت من الشرق فيها اموال لا تحصى قد خافوا عليها(القاضي، 2014: ص39).

أما المورد الثالث فهو الصدقات(القاضي، 2014: ص41)، يقول ابن الصغير(وأصحاب شرطته والطائفون به (اي عبد الرحمن بن رستم) قائمون بما يجب، وأهل الصدقة على صدقاتهم يخرجون الطعام فيقبضون

أعشارهم في هلال كل... من أهل الشاة والبعير، ويقبضون ما يجب على أهل الصدقات لا يظلمون ولا يظلمون) (ابن الصغير، 1985: ص112) وقد ساعد موقع تاهرت على تنامي الثروة الحيوانية وازدهار التجارة الخارجية، مما نتج عنه ظهور بعض الأثرياء.

آ- التركيبة السكانية :

ولأن الدولة الرستمية دولة تسعى للمساواة بين الأجناس، فتحت ذراعها لكل الناس ورحبت بكل الطوائف، وقصدتها الأجناس من كل أنحاء العالم(الحريري، 1987م: ص95)، هذا ما يصوره لنا ابن الصغير في قوله "ليس أحد ينزل بهم من الغرباء، إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم . "...كثر عدد سكان تيهرت واختلفت فيها عناصرهم وأجناسهم، فقد ضمنت مختلف القوميات من البربر والعرب والعجم كما كان فيها اليهود والنصارى، والسودانيون والأوربيون الذين كانوا يتوافدون عليها للتجارة وللعمل وللإقامة(ابن الصغير، 1985: ص110).وبما أن الدولة الرستمية دولة الحرية الفكرية وحرية الاعتقاد، وحرية الكلام في حدود الدين الإسلامي(القاضي، 2014: ص44)، هذا جعلها تزخر بالمذاهب الإسلامية المختلفة كان فيها : المالكية والمعتزلة والصفرية، ومذهب أهل الكوفة والعراق وكل المذاهب الإسلامية الموجودة في المشرق(عليلي، 2018: ص77) ولأن أئمتها ورعيتها كانوا لا يفرضون على أحد مذهبهم، وكانوا يحترمون كل المذاهب الإسلامية التي لا تخالف الدين(الحريري، 1987م: ص98)، فيقول ابن الصغير (حتى لا ترى دارا، إلا قيل لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذ ا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين)(ابن الصغير، 1985: ص116) وكان هؤلاء ممن يود أن ينعم ببركات الاستقرار والأمن والعدالة والرخاء.

ب- طبقات السكان

نتيجة التطور الاقتصادي والاجتماعي الذي عرفته تيهرت، ظهرت مجموعة من الطبقات كحتمية خلقها التطور في البنية الاجتماعية فظهرت طبقة الخاصة والعامة.

الخاصة:

تمثل هذه الفئة الخاصة كما أشار إليها ابن الصغير ابتداء من الإمام الرستمي ويليه أعوانه من الوزراء ورجال الدولة(ابن الصغير، 1985: ص140). وقادة الجند والمرتبطين بالسلطة، مثل: كبار التجار، والصناع الماهرين والعلماء النابغين، الذين قد ضاقوا ذرعا في أوطانهم بظلم الملوك واستبدادهم(عليلي، 2018: ص72). فهاجروا إلى الدولة الرستمية العادلة فاستوطنوها، فانتفعت هي بكفائتهم فكانوا من أسباب إسراعهم في طريق الحضارة وبلوغ قمة المدنية في وقت قريب، كما ظهرت طبقة من الأثرياء منذ عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب فكا ن أفلح تاجرا، ظهر ثراؤه في أ نه (ابتنى القصور واتخذ بابا من جديد وبنى الجفان...) (القاضي، 2014: ص50).

كما كان في تيهرت طوائف كبيرة من العجم قد بلغ بعضهم في الثراء وسعة التجارة درجة كبرى حتى صارت له سوق كاملة تنسب إليه، كسوق ابن وردة(وهران، 2010: ص166)، ونرى الأغنياء في الدولة الرستمية يتنافسون في الإنفاق ومغرمون بالبر والإحسان ويتنافسون في جمع المال، ويكدون الكد في الحصول عليه من أ جل سعادة الدنيا والآخرة(الحريري، 1987م: ص99)، كما كان الأغنياء يؤدون زكاة أموالهم إلى بيت مال المسلمين في وقت معلوم وهم مسرورون كما أعطوا لأنها حق الله في أموالهم.

العامـــة :

يندرج في إطار هذه الفئة العامة أو العوام كما ذكرها ابن الصغير، وتشمل هذه الفئة، الزراع والفلاحين، وأهل الصنائع والمهن وصغار التجار والعاطلين عن العمل، ومن ذوي العاهات والمساكين والخدام والعبيد(ابن الصغير، 1985: ص144). فهذه الطبقة تشمل كل من لم يرتبط بالسلطة الحاكمة أو كل من ليس له موارد مالية مستقرة.

وجد الفقراء في تيهرت منذ عهد الإمام عبد الرحمن بن رستم، فإذا اجتمع إليه مال الصدقة "جلس للأرملة والضعيف " و"أمر بإحصاء الفقراء والمساكين " (عليلي، 2018: ص72).ولكن السياسة الإسلامية الراشدة

التي جرى عليها الإمام عبد الرحمن كانت كفيلة بأن تنعش هذه الفئة، فبعد تقبل المساعدات من وفد البصرة أول مرة(دبوز، 2010: ص405)، وتوزيعها على المستحقين من فقراء ومساكين انتعش الفقير وتحسنت أحواله بسبب توزيعه العادل.

يقول ابن الصغير (ثم نظر في باقي سائر المال، فإذا عرف مبلغه أمر بإحصاء من البلد وفيه ا حول البلد ثم بإحصاء الفقراء والمساكين، فإذا علم عددهم أمر بإحصاء ما في الأهراء من الطعام ثم أمر بجميع ما بقي من مال الصدقة فاشترى منه أكسية صوفا وجبابا وفراء وزيتا ثم دفع في كل أهل بيت ب قدر ذلك) (ابن الصغير، 1985: ص146).وليس من شك في أن هذه السياسة لم تتوقف، لتمسك الأئمة بتطبيق الشريعة تطبيقا دقيقا(دبوز، 2010: ص405).

وكان من الطبيعي أن يقل الفقر في الدولة ويقل عدد الفقراء، لأنها دولة العمل والجد، فكل أفرادها يعملون لا يكسلون ولا يتكلون، فصار اقل شيء من بيت المال يكفي العجز والغرباء والأيامى وذي العاهات والمساكين.

جـ المرأة:

احتلت المرأة مكانة محترمة في المجتمع الرستمي، ولم تضل المرأة عالة على المجتمع وخادمة للرجل في منزله(قرواز، 2012: ص111)، بل كانت تشارك في الإنتاج بالإضافة إلى قيامها بالأعمال المنزلية فهي تقوم بأعمال يدوية كالغزل والنسيج وبأعمال فلاحية فذكر الدرجيني (أن امرأة نفوسية وجدت في الحرث مع زوجها مهدي النفوسي زوجها وهي تنقل التراب على رأسها لإصلاح الجسور)(ابن سعيد، 1974: ص69).

وكانت المرأة الرستمية تحب الصدقة والإحسان وإدخال السرور على الناس وسخاء الرجل من سخاء المرأة، ولا يوجد رجل كريم بالغ الكرم والسخة إلا وزوجته من ورائه تدفعه وتذكي حبه للإحسان(ابن الصغير، 1985: ص154)، كامرأة ابن زلغين الذي هو من الأغنياء الكبار في تيهرت الأتقياء، فقد كانت امرأته كريمة مثله.

كما تضمنت كتاب ابن الصغير إشارة حول المرأة التي لم يكن دورا بسيط ا بل مس أهم القرارات في الحكم، من خلال حديثه عن غزالة زوجة الإمام أبي اليقظان في التأثير عليه من اجل تقليد ابنها أبي حاتم ولاية العهد(الحريري، 1987م: ص96). والدولة الرستمية كانت تعتني كل الاعتناء بتثقيف المرأة وبتعليمها كل ما يجعلها زوجة صالحة، وأما كريمة، وأساسا للدولة العظيمة، هذا وقد حظيت المرأة باهتمام كبير ولم يكن هذا الاهتمام أمرا عارضا بل هو من صميم الدين الإسلامي فعملوا على إعدادها جيدا لتؤدي رسالتها في المجتمع وسيروا لها السبل لتلتحق بحلقات الدرس(وهران، 2010: ص170) فنلاحظ أن المرأة قد لعبت دورا بارزا في الحياة الفكرية في المجتمع الرستمي، وجدناها عالمة وشاعرة ومستفسرة عن مسائل دينها، وكانت كثيرة الاعتناء بالشعائر الدينية وشرائعه، فقد كانت الوعاء الحقيقي للإباضية حملت هذا المذهب بأمانة تدافع عنه وتنشئ الأجيال عليه(وهران، 2010: ص170).

د- نظام العازبة:

لقد أشارت بعض المصادر الإباضية القديمة كأبو زكريا والدرجيني على تنظيم حلق العزابة في عهد الدولة الرستمية، إلا انه كان يعرف باسم "الحلقة"، ويورد الدرجيني معنى الحلقة على أنها اسم لجماعة تجتمع على الشيخ يعلمهم العلم ويلقنهم السير ويبصرهم في الدين(ابن سعيد، 1974: ص71). لكن المعلومات قد شحت عن هذا النظام الاجتماعي وعن دوره في المجتمع الرستمي في تلك المصادر إلا أنه توجد بعض المراجع الحديثة التي تناولت موضوع نظام العزابة وأثره الاجتماعي في وادي ميزاب(اعوشت، 1991: ص90). أي بعد سقوط الدولة الرستمية والتحاق الإباضية بوادي ميزاب، فقد لجأ الإباضية إلى هذا ال نظام حفاظا على وجودهم وعقائدهم المتناقضة مع المذاهب الشيعية المتطرفة الحاكمة آنذاك(اعوشت، 1991: ص91).

وهناك من يحدد نشأة هذا النظام في مطلع القرن الخامس الهجري أسسه أبو عبد الله محمد بن بكر بن أبي بكر الفرسطائي النفوسي (ت 440هـ/1040مـ)، وهذا النظام كان أول مرة على هيئة حلقة العلم ثم ترقى إلى نظام اجتماعي يهتم بالشؤون الاجتماعية، إذ قنن قوانينه العلامة أبو عمار عبد الكافي (ت 570هـ/ 1174مـ)(القاضي، 2014: ص540)، ومجلس العزابة ينظمه الاباضية في كل مدينة أو منطقة إباضية،

ويعنون بالعزابة من انقطع للعلم والدين عزوبا عن الدنيا ولهذه الجماعة رئيس ينتخبونه من بين أعضائها ممن اشتهر بالسيرة الحسنة والعدل والغيرة على المذهب الاباضي وشؤون أفراده، ويتألف مجلس العزابة من عشرة أشخاص يجتمعون في مسجد البلد ويفصلون بين المتقاضين ومن أبى حكمهم أعلنوا البراءة منه(ابن سعيد، 1974: ص72)، فيقاطع حتى يرد الحق ويتوب، وقد تعددت مهام حلقة العزابة فشملت الجوانب الدينية والتعليمية والاجتماعية والقضائية والدفاعية والاقتصادية، وكانت وسيلتها الوحيدة للقيام بهذه المهام كلها واحترام سلطتها تولي مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(دبوز، 2010: ص410).

ما يمكننا قوله أن ازدهار تيهرت يعود إلى شخصية أئمتها الذين طبقوا الأفكار السياسية الإسلامية، ولعل السيرة الفاضلة التي رسمها الأئمة الثلاثة الأول هي خير من يحقق للمجتمع العدالة والأمن والمساواة.

3- مرحلة التراجع (258-296هـ/872-909م)

كانت سياسة الأئمة الرستميين الأوائل متماشية مع تعاليم المذهب الإباضي تقوم على العدل والمساواة وعدم التعصب لعصبية دون سواها الأمر الذي هيأ للحكم الثبات والاستقرار والخروج عن هذه السياسة فيما بعد سبب الاضطراب والفتن. فقد تحولت الإمامة عن مبدأ الاختيار إلى فكرة التنصيب بالتوريث كما ظهرت سياسة الميل لعناصر دون سواها وتمكينها من الاستئثار بمراكز الدولة ووظائفها، مما شكل خروجا عن تعاليم المذهب الاباضي ونجم عن ذلك حركات وثورات على الأئمة اتخذت في اغلبها طابع الانشقاق المذهبي (ابن الصغير، 1985: ص62).

وبسبب ترحيب الدولة الرستمية بكل المسالمين وفتحها أبوابها لكل الناس وتمتع كل الناس فيها بالحرية في نطاق الدين الإسلامي قد مكن العباسيين من إرسال طوائف كبيرة من جواسيسهم، فاستقروا في الدولة سيما في تيهرت العاصمة فصاروا يغتنمون الفرص لبث الفتنة ويستغلون كل الأسباب لإشعال النار فيها، وبالإضافة إلى ذلك وضوح الطبقية في المجتمع نشأ عنها تذمر اجتماعي واقتصادي فالطبقة العليا تحاول الحفاظ على موقعها على حساب الطبقة السفلى وهذه الأخيرة تحاول رفع مكانتها الاجتماعية لا بد من ذلك أن ينشأ التذمر والتململ الذي أخذ أشكال متعددة كإعلان الثورة والقيام بغزوات للسلب والنهب(دبوز، 2010: ص411).

وبسبب تردي الأوضاع وعدم توفر الأمن ظهر قطاع الطرق الذين يعشقون الغزو والنهب والسلب على العامة والخاصة وقد ظهر اللصوص في مدينة تيهرت أيام حكم الإمام أبي اليقظان، عهد سيطرة البذخ والترف بعد تحول البلاط الرستمي عن حياة الزهد والتقشف ومن مظاهر ذلك أن عبد الرحمن بن رستم كان ورعا زاهدا، فتذكر المصادر التاريخية أن بيته لم يكن فيه إلا "حصيرا فوقه جلد ووسادة ينام عليها وسيفه ورمحه وفرس مربوط في ناحية من داره(دبوز، 2010: ص412). أما خلفاؤه فقد عاشوا حياة خلفاء المشرق وملوك الفرس فامتلكوا الضياع والمنازل والحصون التي أقاموها بنواحي مدينة تيهرت حتى قال ابن الصغير (كانت القبائل المنتشرة حول تيهرت، لما اكتسبت من أموال اتخذت العبيد والخيول، قد نالها من الكبر ما نالها أهل المدينة) فاقتنوا الجواري والغلمان والعبيد والحشم كما يقول ابن الصغير، وانصرف معظم الرستميين إلى حياة الترف والدعة والولع بالفنون والآداب(وهران، 2010: ص175).وفضلا عن ذلك كان اختلاط البربر بالعناصر الوافدة له حسناته كما كان له مساوئه أيضا، فقد تحلل المجتمع الرستمي وتفشت الرذائل فيه وهو ما عبر عنه الشماخي في قوله:(فسدت بها البلد وفسد أهلها وأظهروا المنكر وكثر الفسق والزنى وشرب الخمر) كما زاد الحالة سوءا بتفاقم الخلافات داخل البيت الرستمي وقيام البيت بتدبير المؤامرات والاغتيالات ضد بعضهم البعض لتولي الحكم، مثل ما حدث مع الإمام أبي حاتم يوسف الذي اغتيل من طرف بنو أخيه.

وفي ذلك يمكننا القول أن الدولة الرستمية قد نعمت باستقرار سياسي في فترة الأئمة الثلاثة الأول صاحبه استقرار وازدهار اقتصادي واجتماعي حيث كان أثره بارزا على حضارة الرستميين أما في فترة ضعف الأئمة واضطراب أ من الدولة وعدم استقرارها بسبب غياب السلطة الحازمة والفتن والثورات وغيرها قد

عادت بعواقب وخيمة على الدولة الرستمية من نواحي اقتصادية واجتماعية فاجتمعت بذلك العوامل كلها للتمهيد لسقوط الدولة الرستمية في يد الشيعة الفاطميين في شوال(296هـ/909م).

الخاتمة

يظهر لنا في ختام هذا البحث المتواضعة لموضوع اثر الاعراف الاجتماعية على النظام الاجتماعي في عصر الرستمية جملة من الاستنتاجات:

ـ ان بلاد المغرب أكثر بقاع العالم الإسلامي تقبلا لعقائد الخوارج وأكثرها حماس لنصرتهم، فباعتناق المغاربة مذهب الخوارج رفعوا علم الثورة الأمويين والعباسيين وانتهى بهم الأمر إلى إقامة إمارات مستقلة منها قيام الدولة الرستمية بالمغرب الأوسط.

ـ تولى حكم هذه الدولة التي استمرت أكثر من قرن وثلث قرن سبعة أئمة تميز الأولون منهم بالقوة والمنعة والحنكة السياسية كالإمام عبد الوهاب الذي أحبط كافة الحركات المناوئة ذات الطابع المذهبي بالقوة والإمام أفلح الذي امتاز عهده بالنمو الاقتصادي والرخاء المعيشي .

ـ بلغت تيهرت في الدور الأول من تاريخ التطور السياسي للدولة شأنا عظيما من الرقي والازدهار، حتى أنها كانت تشبه وتقارن بقرطبة وبغداد ودمشق وكانت تدعى بعراق المغرب، وكان بها من القصور العالية والمنازل الرفيعة والحصون والمساجد .

ـ عرفت الدولة الرستمية ازدهارا اقتصاديا واسعا في عصر الاستقرار السياسي، كان أبرز الأثر وأوضحه على المجتمع الرستمي، والحقيقة أن العوامل المساعدة كانت متوفرة، كالعدالة وتوفر الأمن في الداخل، إضافة إلى العلاقات الحسنة مع الجيران، كل هذا أدى إلى تحقيق ذلك الازدهار والرخاء.

ـ بقيام الدولة الرستمية تحول المجتمع من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار، وإنشاء المدن وامتداد العمران، كما أحدثت آراء ومبادئ الخوارج الإباضية كالمساواة وتحقيق العدالة الاجتماعية، تحولات كبرى في حياة المجتمع الرستمي عامة والتيهرتي خاصة، بقدوم عناصر شرقية وأندلسية وحتى أوربية للإقامة في كنف الدولة، حيث تمخض عن ذلك آثار طيبة وأخر ى سيئة في المجتمع الرستمي، هذا ما لاحظناه في دورها الثاني حيث تعقد المبنى الاجتماعي في تيهرت، على أساس الانتماء المذهبي والقبلي والعرقي والاقتصادي، وتعددت ضروب الولاء وأنواع التحالفات وكثرة الانقسامات بحسب ما تمليه المصالح المختلفة وانر أن كثرة الفتن والاضطرابات السياسية التي عرفتها الدولة الرستمية في دورها الثاني، أصاب الازدهار الاقتصادي والاجتماعي الذي شهدته البلاد في زمنها الأول.

المصادر والمراجع

- ابن الصغير، (1985). أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق وتعليق دكتور محمد ناصر، الاستاذ ابراهيم بحار، دار المغرب الاسلامي.
- ابن خلدون، عبد الرحمان ت808هـ/1406م، (2000م). تاريخ ابن خلدون ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تر: د. سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- ابن سعيد، الدرجيني أبو العباس أحمد (ت 670هـ/ 1271مـ)، (1974م). طبقات المشائخ المغرب، تح: إبراهيم طلاي، مطبعة البحث، الجزائر.
- إسماعيل، عبد الرزاق محمود، (1985مـ). الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، ط 2، نشر وتوزيع دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب.
- اعوشت، بكير بن سعيد، (1991). وادي ميزاب في ظل الحضارة الاسلامية دينياً-تاريخياً-اجتماعياً، المطبعة العربية ،غرداية، الجزائر.
- بوخاوش، مريم، (2015). اثر سقوط الاندلس على المغرب الاوسط، اطروحة لنيل شهادة الدكتوراه لعلوم التاريخ الاسلامي الوسيط ،اشراف د. مبارك بوطارن.
- بوهدي، سهيلة، (2019م). عادات المجتمع المغاربي بين الموروث البربري المحلي والمؤثرات العربية الوافدة، مذكرة لنيل شهادة الماستر تخصص الغرب الاسلامي في العصر الوسي.

- الجازي، هايل، (2018). مفهوم العرف، https://mawdoo3.com
- جعفري، عز الدين،(2018م). أطلس العادات والتقاليد بمنطقة توات، أطروحة دكتوراه، تخصص تاريخ، قسم التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان.
- الحريري، دكتور محمد عيسى، (1987م). الدولة الرستمية في المغرب الاسلامي حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والاندلس، كلية الآداب ،جامعة المنصورة.
- خامت، كهينة؛ وحمداوي، سعاد، (2015). الحياة العلمية في الدولة الرستمية (160-296هـ)، مذكر لنيل شهادة الماستر في تاريخ المغرب الاسلامي الوسيط، اشراف د.فاتح بريكي.
- دبوز، محمد علي، (2010). تاريخ المغرب الكبير، مؤسسة تاوالت الثقافية.
- السامرائي، عامر حميد، (2017م). الموجز من تاريخ المغرب العربي في العصور الإسلامية الأولى.
- عبد اللطيف، جمال الدين محمد، (2001م). الموسوعة الاسلامية العامة، إشراف أ.محمد حمدي زفزوف، مطابع التجارية، القاهرة، مصر.
- العروي، عبد الله، (1996). مجمل تاريخ المغرب، الطبعة الخامسة.
- عليلي، محمد، (2018). البعد الاجتماعي والثقافي التسامحي في الدولة الرستمية، جامعة ابن خلدون، العبرة للدراسات التاريخية والاثرية في شمال افريقيا، المجلد الاول العدد01 جانفي.
- قاضي، نبيلة، (2014). اثر الاوضاع السياسية في تيهرت الاقتصادية والاجتماعية (160-296هـ) (77-909م)، مذكرة لنيل شهادة الماستر في التاريخ، اشراف د.محمد الصديق.
- قرواز، فتحية، (2012). الحياة الحضارية في الجزائر الرستمية160-296هـ)(77-909م)، مذكرة لنيل شهادة الماستر في التاريخ ،اشراف د.ميلود ميسوم .
- كامب، غابرييل، (2010). البربر ذاكرة وهوية، ترجمة: عبد الرحيم حزل، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب.
- المالكي، علي رؤوف، (2014). الموارد المالية والاوضاع الاجتماعية لتاهرت، كما ورد عن رسالة ابن صغير المالكي،ت290هـ/912م، العدد الثاني والثلاثون.
- محمدي، مريم لمام، (1068). العادات والتقاليد الاسرية بقصر تمرنة (ولاية الوادي) بين الاستمرارية والتغيير، مجلة إنسانيات، العدد 59، جانفي- مارس.
- مساعدة، زهر، (2019). في مفهوم الثقافة وبعض مكوناتها العادات التقاليد الاعراف، مجلة الذاكرة، ع 9، تصدر عن مخبر التراث اللغوي والادبي، الجزائر، جوان.
- هشام، محمد هشام؛ وجالئي، مريم، (1937). العادات والتقاليد النوبية في رواية اللعب فوق حبال النوية، مجلة دراسات العلوم الانسانية، مصر .
- وهران، قدور، (2010). جوانب من التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لمدينة تاهرت، استاذ بجامعة وهران، الجزائر، ثقافتنا للدراسات والبحوث المجلد 5- العدد العشرون.